

الخطاب الرئاسى فى عصر النبوة

د/حسن البندارى (*)

تمهيد:

تعنى الخطابة بأنها خطاب يلقيه فرد على جماعة بغرض التأثير فى نفوسهم وعقولهم ، وإقناعهم بأمر ما أو موضوع معين ، فقد عمد إليها الرسول (ص) منذ أن نزل عليه الأمر الإلهى بالجهر بالإسلام ، بعد أن ظلت الدعوة إليه سرية لمدة طويلة ، وذلك بقوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) ، وقد جاهرهم النبى (ص) بالإسلام فى خطبته الأولى ، وتوالت خطبه فى مناسبات عديدة تناولت مبادئ الإسلام والتشريع والتوجيه والنصح ، وطرح الأفكار المستقبلية التى تفيد المسلمين فى حياتهم الدينية والمعيشية ، كما تناولت أحداث الصراع بين المسلمين بعد هجرتهم إلى يثرب، والمشركين الذين أعلنوا الحرب على المسلمين ، وقد تنوعت الخطابة فى هذا العصر إلى نوعين هما : خطابة النبى (ص) ، وخطابة الوفود التى وفدت عليه بغرض الرد عليه (ص) .

(*) أستاذ البلاغة والنقد الأدبى - كلية البنات - جامعة عين شمس .

(١)

خطابة النبي (ص)

نماذج منها :

الأولى: قالها (ص) بعد أن نزل عليه الأمر الإلهي بدعوة قومه "فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين" فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : "إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررتُ الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد" (١).

الثانية: خطبته (ص) بعد هجرته إلى يثرب، قال (ص) بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله : "أما بعد أيها الناس فقدّموا لأنفسكم، تعلمن، والله ليصعكن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا صاحب بحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وأنبئك ما لا، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فيكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" (٢).

(١) ابن الأثير، الكامل ٢٧/٢، وجمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، ص ١٤٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، وجمهرة خطب العرب، ص ١٤٨.

الثالثة: خطبته (ص) يوم أحد فقال : "أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته، والنتاهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين، والجِدِّ والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كربه، قليل من يصبر عليه إلا من غُرم له على رشدته، إن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أمركم به، فإني حريص على رشدكم. إن الاختلاف والتنازع والتثييب من أمر العجز والضعف، وهو مما لا يحبه الله ولا يعطى عليه النصر..."^(١).

الرابعة: خطبته يوم فتح مكة، فبعد أن طاف (ص) بالبيت سبعا على راحلته، وأخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة - وقف على بابها وقال : "لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة (مكرمة) أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين الإسدانة البيت (خدمة البيت) وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا، فيهما الدية مغلظة منها أربعون خلفه (الحامل من النياق) في بطونها أولادها. يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمتها (تكبرها) بالآباء. الناس من آدم وادم خلق من تراب. ثم تلا : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، يا أهل مكة : ما ترون أي فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء"^(٢).

(١) شرح ابن أبي الحديد ٦٥/٣، والجمهرة ١٤٩/١، ١٥٠.

(٢) ابن هشام، السيرة ٧٣/٢، والجمهرة ١٥٤/٣.

الخامسة: خطبته في حجة الوداع : قال (ص) : "الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحتكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير. أما بعد : أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت : اللهم فاشهد .."(١).

يظهر من الخطب الخمسة أنها تشترك جميعاً في معنى كلي واحد وهو "الحرص على بناء الإنسان المسلم ورعايته". وهو هدف مركزي لا يختلف عليه أحد. ولكن الخطب الخمسة تتمايز في الأهداف الجزئية، على حسب اهتمام كل خطبة.

أما المعنى الكلي ذو الهدف المركزي فهو : أن الرسول (ص) قصد توضيح أن الناس مطالبون بالدخول في دين الله - وهو الإسلام، وتعزيز إيمانهم به بالعمل على طاعة الله وتنفيذ أوامره وتجنب معصيته والامتناع عما نهى عنه - وهم مطالبون كذلك بمساندة المحتاجين ومعاونتهم، وإنجاز التكاليف الإلهية التي كلفهم الله تعالى بها، حتى لا يتعرضوا لعذابه.

وأما الأهداف الجزئية التي اشتملت عليها الخطب الخمسة فتتجلى في أن الخطبة الأولى تعتمد إلى نشر الدعوة وهي لقريش وللناس كافة. حيث دعا القرشيين إلى المبادرة بالإيمان بالدين الجديد ، ونبذ عبادة الأصنام، قبل أن

(١) البيان والتبيين ١٥/٣، والجمهرة ١٥٥/١-١٥٨.

فكر وإبداع

يأتيهم الموت القادم لا محالة. فهو أقرب مما يظنون، وحذرهم وأنذرهم من المكابرة والإصرار على الشرك به.

وأما الخطبة الثانية فتعرض لعاقبة التكذيب بما جاء به النبي (ص) أو إهمال ما نادى به، لأن المحاسبة سوف تكون عسيرة لكل من كذب أو أهمل بعد أن أبلغه الرسول (ص) بجملة الأوامر والنواهي؛ فجهنم سوف تكون المصير الذي ينتظر المكذبين والمهملين والمعاندين. وتدعو الخطبة إلى فعل الخير بالمادة ولو كانت قليلة، وبالكلمة الطيبة أو النصيحة المخلصة. فكل منهما "حسنة" يضاعفها الله تعالى للمعطي والناصح.

وأما خطبته الثالثة فتدعو المسلمين إلى "الجهاد" وإقرار ما آمنوا به، والجهاد تضحية بالنفس، لأنه يعنى محاربة القوة المعاندة المشتركة التي تهدف إلى القضاء على الإسلام، وهذه الحرب تتطلب الصبر، والله تعالى لن يتخلى عن المدافعين عن دينه، الصابرين على المشاق، والمتحملين للأذى البدني. ولهم المكافأة في الدنيا إذا سلموا ونجوا، والثواب العميم في الآخرة إذا قتلوا. فهم شهداء أحياء عند ربهم بنص القرآن الكريم "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون".

وأما الخطبة الرابعة فتخاطب الناس جميعاً : سواء أكانوا من أهل مكة وقد منّ الله عليها بالفتح المبين، أم من الجيش الإسلامي الذي صاحب الرسول (ص) في دخول مكة منتصراً ظافراً على قوة الشرك، تخاطبهم فتؤكد على ضرورة تحقيق السلام بين القبائل، ونسيان الماضي بما فيه من ضغائن وأحقاد، وحدد لهم طريقة التصالح في جريمة القتل الخطأ، ودعا إلى إقرار مبدأ المساواة بين الناس فلا فضل لأحد على أحد إلا بقوى الله،

ولاسيما أن القرآن قد ألغى الفوارق الاجتماعية ولم يعد الفخر والتباهي إلا بمدى تقوى المسلم والتزامه بما أمر الله تعالى. ثم أصدر الرسول (ص) العفو العام على جميع من حاربوا وتآمروا ضد المسلمين، بعد أن رغبوا في مسامحتهم والصفح عنهم فهو (أخ كريم وابن أخ كريم).

وتؤكد الخطبة الخامسة الوداعية على مبادئ وقواعد يجب التقيد بها. فهي مبادئ دنيوية، ودينية. كلاهما ينظم العلاقة بين الناس، ويخضع الجميع إلى قانون يتعلق بأمن المسلم في المجتمع.. ويحذر من الاعتداء على الحياة، والأموال، وحق المرأة على الرجل وحق الرجل عليها.. ثم أكد (ص) على مبدأ المساواة بين الناس جميعاً. وانتهت بوصية ملزمة خاصة بالمواريث.

وأما أسلوب الخطب فيعكس عدة ظواهر :

الظاهرة الأولى: "دقة اللفظ ووضوحه" فكل لفظة في مكانها المناسب لها الملائم لما يجاورها من ألفاظ. ويضاف إلى الدقة : "سهولة" اللفظ ومرونته، وقربه من إدراك الناس، فلا صعوبة في فهمه، ولا يحتاج المستمع إلى شرح معناه وتحديد دلالاته. لأن الخطبة من هذه الزاوية (زاوية دقة اللفظ وقربه)، ليست مقصورة على فئة معينة، أو زمن معين أو مكان محدد - فهي رسالة لكل من عاش في هذا العصر والعصور التالية إلى أن تقوم الساعة.

الظاهرة الثانية: نظام الأسلوب الذي أدى به الرسول (ص) الخطبة. فالأسلوب نام متدرج، واضح لا تعقيد فيه، ابتعد عن السجع الذي كان سائداً في الجاهلية وهو سجع الكهان، الذي يغمض المعنى أمام المستمع، فيسهل على المتلقين بسبب تجنب التعقيد. فالسهولة تؤدي إلى استيعاب ما تنادي به الخطبة من مبادئ وقواعد.

الظاهرة الثالثة: قوة التعبير وصرامته على حسب خطورة المعنى وأهمية المناسبة، ولذلك وجدنا لغة الخطبة الأولى، والخطبة الثانية، شديدة الإيقاع. إذ هي طائفة من الإنذارات، والتحذيرات، اقتضت لغة ظهرت فيها ظاهرة "التأكيد" المتمثلة في "نون التوكيد" الثقيلة على أساس أن الإنذار أو التحذير مؤكد لا رجعة فيه ولا إرجاء ولا إبطاء، وعلى أساس أن الغرض من ذلك هو إحداث "استجابة نفسية" فورية أو مستقبلية لدى المتلقي فيطيع ما أمره الرسول (ص) به، ويتجنب ما حذر منه وينأى عنه.

الظاهرة الرابعة: توظيف اللغة الموجزة واللغة المطنبة "فخطب النبي (ص) قد تميل إلى الإيجاز في التعبير"، على نحو ما تحقق في الخطبة الأولى، فالهدف فيها هو: تبليغ "أمر حاسم" هو "الدعوة إلى الإيمان بدين جديد" في أول جهر بالإسلام لقوم لن يتقبل عقولهم التفاصيل المحتاجة إلى الإطناب. وهذا يعنى أن طبيعة المتلقين أو حالهم تتطلب إيجاز التغيير واقتصاده. فقد أحدث الأمر "صدمة فاجأتهم" لن يفيد معها أية معلومات إضافية. فما دعا إليه محمد خطر ما بعده خطر... وأما الخطبة الثانية فقد اقتضت المناسبة الإيجاز في التعبير، فهذه هي المرة الأولى التي يخاطب فيها أهل يثرب، وهم قد آمنوا بما أنزل عليه وقد انتصروا لكل ما نادى به، فناسب ذلك طرح إرشادات ونصائح وتحذيرات قليلة محدودة، تتوافق مع اللقاء الأول، على أن يتم تفصيل ما تحدث عنه في خطب تالية. ولذلك جاءت الخطبة الخامسة (خطبة الوداع) بلغة إطنابية. اقتضتها كثرة المبادئ وتعددتها.

الظاهرة الخامسة: "تأكيد الأسلوب"؛ فقد وردت في الخطب الخمسة لوازم تأكيدية لتأكيد المعانى التي تناولها الرسول (ص). وهذه اللوازم : "القسم" بـ"الله" عدة مرات كما في الخطبة الأولى، واستخدام الحرف (إن)

المؤكد للجملة في الخطب الخمسة، و(نون التوكيد الثقيلة) كما في الخطبة الأولى (والله لتموتن) و(لتبعثن)، وفي الخطبة الثانية (ليصعكن) و(ليقولن). و(لينظرن) و(التكرار) في نهاية كل فقرة بقوله (ص) (ألا هل بلغت. اللهم فاشهد) ثلاث مرات في خطبة الوداع.

(٢)

خطب الوفود والردود عليها

نماذج منها :

وقد ألقى خطباء الوفود التي وفدت على النبي (ص) في المدينة عدة خطب سميت "بخطب الوفود". حيث تحدث كل خطيب جاء ضمن وفد أوفدته هذه القبيلة أو تلك - تحدث عن أفكار القبيلة ومطالبها. وتقابل هذه الخطب بخطب مقابلة جاءت رداً عليها على نحو ما يظهر في الخطب التالية :

١- خطبة عطارذ بن حاجب بن زرارة : بين يدي النبي (ص) :

قدم على رسول الله (ص) سنة تسع للهجرة عطارذ بن حاجب بن زرارة في أشراف من بني تميم ، فلما دخل الوفد المسجد نادوا رسول الله (ص) من وراء الحُجرات : أن أخرج إلينا يا محمد ، فأذى ذلك من صياحهم رسول الله (ص) فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد ؛ جئناك لنفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال نعم ، قد أذنت لخطيبكم قليقل ، فقام إليه عطارذ فقال:

"الحمد لله الذي له علينا الفضل ، وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ، ووهب لنا أموالاً عظيماً ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسر عُدّة ، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ ، ألسنا برعوس الناس

وأولى فضلهم ؟ فمن يفاخرنا فليعدّد مثل ما عدّدنا ، وإنّا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنّا نعرف بذلك . أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس .

فقال رسول الله (ص) لثابت بن قيس بن الشّمس ، قم فأجب الرجل في خطبته ، فقام ثابت فقال :

٢- خطبة بن ثابت بن قيس الشّمس :

"الحمد لله الذي : السماوات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قطّ إلّا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسوله ، أكرمهم نسباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأفضلهم حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وأتممه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فأمن برسول الله (ص) المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس أنساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعلاً ، ثم كان أولى الخلق استجابة لله ، حين دعاه رسول الله (ص) نحن ، فنحن أنصار الله . ووزراء رسوله ، نقايل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولي هذا . واستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم ."

ثم قالوا يا محمد : ائذن لشاعرنا ، فقال نعم ، فقام الزبير بن بدر ، فأشدد قصيدة في الفخر ، وبعث النبي (ص) إلى حسان بن ثابت فردّ عليه ، فقال الأقرع ابن حابس التميمي . إن هذا الرجل لمؤتّى له ، لخطيبه أخطب

من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله (ص) ، فأحسن جوائزهم .

٣- عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر : بين يدي رسول الله (ص) :

وسأل رسول الله (ص) عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر^(١) فقال عمرو : "مطاع في أدنيته"^(٢) ، شديد المعارضة^(٣) . مانع لما وراء ظهره" فقال الزبرقان : "والله يا رسول الله ، إنه ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي" فقال عمرو : "أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زَمِرَ المروءة"^(٤) ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، حديث الغنى" فلما رأى أنه خالف قول الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار في عين رسول الله (ص) ، قال : يا رسول الله رضيت ، فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ما عملت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى . فقال رسول الله (ص) عند ذلك : "إِنَّ مِنَ الْبَيِّنِ لَسِحْرًا" .

٤- خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي : بين يدي رسول الله (ص) :

لما قدمت وفود العرب على النبي (ص) قام طهفة بن أبي زهير النهدي فقال : "يا رسول الله أتيناك من غوري"^(٥) تهامة بأكوار الميس^(٦) ، ترمى بنا العيس نستجلب الصبِير^(٧) ، ونستجلب الخير^(٨) ، ونستعْضِدُ^(٩)

(١) هما سيدان من بني تميم .

(٢) أي في الأدنى منه : أي أربيب ، وأصله أدنين حذف نونه لإضافته إلى الضمير .

(٣) المعارضة : قوة الكلام وتنقيحه ، والراي الجيد .

(٤) قليل المروءة .

(٥) الغور : كل ما انحدر مغرباً عن تهامة ، والأكوار : جمع كور بالضم ، وهو الرجل بأدواته ، والميس : شجر عظام أي بالأكوار المصنوعة منه .

(٦) العيس جمع عيساء : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .

(٧) الصبِير : السحاب الكثيف .

(٨) العشب .

(٩) استعْضِدُ الثمرة : اجْتَنَبَها ، والبرير : ثمر الأراك ، وكانوا يأكلونه وقت الجذب لقلة الزاد .

الْبَرِيرَ ، وَنَسْتَحِيلُ الرَّهَامَ^(١) ، وَنَسْتَحْيِبُ الْجَهَامَ^(٢) ، وَمِنْ أَرْضٍ غَائِلَةٍ
النَّطَاءَ^(٣) ، غَلِيظَةَ الْوِطَاءِ ، نَشِيفَ الْمُذْهَنِ^(٤) ، وَيَيْسَ الْجَعْنِ^(٥) ، وَسَقَطَ
الْأُمْلُوجَ^(٦) ، وَمَاتَ الْفُسْلُوجُ^(٧) ، وَهَلَكَ الْهَدَى^(٨) ، وَمَاتَ الْوَدَى^(٩) ، بَرِئْنَا يَا
رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَيْثَنِ وَالْعَنْثَنِ^(١٠) ، وَمَا يَحْدِثُ الزَّمَنُ ، لَنَا دَعْوَةُ السَّلَامِ ،
وَشَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ ، مَا طَمَى^(١١) الْبَحْرَ ، وَقَامَ تِمَارُ^(١٢) ، وَلَنَا نَعْمٌ ، هَمَلُ^(١٣)
أَغْفَالُ ، مَا تَبَضَّ بَيْلَالُ^(١٤) ، وَوَقِيرُ^(١٥) كَثِيرُ الرُّسْلِ ، قَلِيلُ الرُّسْلِ ، أَصَابَهَا
سُنِّيَّةٌ حَمْرَاءُ مُؤْزِلَةٌ^(١٦) ، لَيْسَ بِهَا عِلَلٌ وَلَا نَهْلٌ .

٥- رده صلى الله عليه وسلم : فقال رسول الله (ص) :

"اللهم بارك لهم في مَحْضِهَا^(١٧) وَمَحْضِهَا وَمَدَّقَهَا ، وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي
فِي الدُّثْرِ^(١٨) بِيَانِ الثَّمَرِ ، وَافْجُرْ لَهُ الثَّمَدَ^(١٩) ، وَبَارِكْ لَهُ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ .
وَمَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا ، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا

(١) الرهم جمع رهمة بالكسر : وهي المطر الضعيف الدائم . ونستحيل : نخال ونظن . وسحابة مخيلة بضم
فتكسر : أي تحسبها ماطرة .

(٢) الجهام : السحاب قد أراق ماءه .

(٣) النطاء : البعد ، أي بعيدة بعداً مهلكاً .

(٤) مستنقع الماء : أو كل موضع حفرة سيل ، ونشف الحوض الماء : شربه .

(٥) أصل النبات .

(٦) ورق مورق السرو لشجر البادية .

(٧) مالان واخضر من القضبان . وعجلت الشجرة : أخرجته .

(٨) ما يهدى إلى مكة ليخر .

(٩) الودى الفسيل (النخل) الصغار) .

(١٠) الصم الصغير .

(١١) أمثلاً وعلاً .

(١٢) جبل بيلاد قيس .

(١٣) مهملة والأغفال جمع غفل بالضم : وهو ما سمة عليه من الدواب .

(١٤) بوض الماء يبيض : سأل قليلاً قليلاً ، والبلال : اللبل ، والمراد قلة اللبن .

(١٥) القطيع من الغنم .

(١٦) الرسل : القطيع من كل شيء ، والرسل : اللبن ، وسنية : تصغير تعظيم لسنة ، وهي القحط والمجاعة ،

وحمرأ : أي شديدة ، ومؤزلة : ذات أزل يسكون الزاي ، وهو الضيق والشدة .

(١٧) اللبن الخالص ، ومحض اللبن : أخذ زبده والمضيق : اللبن الممزوج بالماء ، منه فامتدق .

(١٨) الدثر : المال الكثير . وقيل هو الكثير من كل شيء ، وأراد به هنا الخصب والنبات الكثير

(١٩) الماء القليل لا مادة له ، أو ما يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف .

إله إلا الله كان مخلصاً ، يا بنى نهد ، ودائع^(١) الشرك ، ووضائع الملك لا تُلطِط في الزكاة ، ولا تُلحد في الحياة ، ولا تتأقل عن الصلاة .

٦- خطبة ظبيان بن حداد : بين يدى النبی (ص) :

وفد ظبيّان بن حدّاد في سرّاة مدحج على النبی (ص) ، فقال بعد السلام على رسول الله (ص) ، والثناء على الله عزّ وجلّ بما هو أهله :

"الحمد لله الذي صدّع^(٢) الأرض بالنبات ، وفتق السماء بالرجع^(٣) ، ثم قال : نحن قوم من سرّاة مدحج من يحابر^(٤) بن مالك ، ثم قال : فتوقّلت^(٥) بنا القلاص من أعالي الحوف ورعوس الهضاب ، يرفعها عرر^(٦) الرّبا ، ويخفضها بطنان الرّقاق ، وتلحقها دياجى الدجى ، ثم قال : وسرّوات الطائف كانت لبني مهلائيل بن قينان ، غرسوا وديّانه ، ودلّوا خشانه^(٧) ورعوا قربانه ، ثم ذكر نوحاً حين خرج من السفينة بمن معه ، قال فكان أكثر بنيّه بنات ، وأسرعهم نباتاً ، عادّ وثمود ، فرماهم الله بالدّماليق وأهلكهم بالصواعق : ثم قال : وكانت بنو هانئ من ثمود تسكن الطائف ، وهم الذين خطّوا مشاربها ، وأتوا جدّاولها^(٨) ، وأحيّوا غراسها ، ورفعوا عريشها ، ثم

(١) أى الغنائم : التى تؤخذ من المشركين وتودع بيت مال المسلمين ، ليقوموا بها حل شئونهم ، والوضائع جمع وضیعة : وهى = ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور ، يريد أن يقول لهم : إن موارد المال للأمة الإسلامية هما هذان الركنان الغنائم والزكاة ، فلا تعطلوا الزكاة ، ولذا عقب ذلك القول بقوله : لا تلطط في الزكاة أى لا تمنعها : لططت حقه جحدته كالتطط ، ولا تلحد في الحياة : أى لا يجرى منكم ميل عن الحق مادمتم أحياء ، ولا تتأقل عن الصلاة : أى عن أدائها فى وقتها ، ويروى : لا يلطط فى الزكاة ، ولا يلحد فى الحياة (بالبناء للمجهول) ولا تتأقل عن الصلاة .

(٢) شق .

(٣) المطر بعد المطر .

(٤) هو مراد بن مالك (وهو مدحج) ابن أد بن زيد بن يشجب بن عريب بن يزيد بن كهلان .

(٥) توقّلت فى الجبل . صعد ، والقلاص جمع قلوّص : وهى الناقة الشابة أو الباقية على السیر ، والحوف : بلد بعمان .

(٦) فى الأصل : "عرار" ولا معنى له هنا ، وارى أن صوابه "عرر" جمع عرة كقبة الأصل "عراعر" بفتح العين الأولى جمع عرة بضمها ، وعررة الجبل والسمام وكل شئ : رأسه ، وبطنان جمع باطن : وهو الغامض من الأرض : أى المطمئن منها ، والرّقاق جمع رق بالفتح ، وهى كل أرض إلى جنب واد ينسبط الماء عليها أيام المد ثم ينقب ويدياجى الليل حنادسه كأنه جمع دجاجة ، والدجى : جمع دجبة : وهى الظلمة .

(٧) الخشن والأخشن :

(٨) أتى المساء سهل وأصلح مجراه ، أى سهلوا طرق المياه إليها .

قال: وإن حمير ملكوا مَعَاقِلَ الْأَرْضِ وَقَرَّارَهَا، وَكُهُولَ النَّاسِ وَأُغْمَارَهَا^(١) ورعوس الملوك وعرارها ، فكان لهم البيضاء والسوداء ، وفارس الحمراء والجزية الصفراء^(٢) ، فبطروا النعم ، واستحقوا النقم ، فضرب الله بعضهم ببعض ، ثم قال : وإن قبائل من الأزْد نزلوا على عبد عمرو بن عامر ، ففتحوا فيها الشرائع^(٣) ، وَبَنَوْا فِيهَا الْمَصَانِعَ^(٤) ، واتخذوا الدسائع^(٥) ، ثم ترامت مذبح بأسننتها ، وتنزّت^(٦) بأعنتها ، فغلب العزيز أدلّها ، وقتل الكثير أفلها ، ثم قال : وكان بنو عمرو بن خالد بن جذيمة يَخْبُطُونَ عَصِيدَهَا^(٧) ، ويأكلون حَصِيدَهَا ، وَيَرشُّونَ^(٨) حَصِيدَهَا .

فقال رسول (ص) : "إن نعيم الدنيا أَقْلُ وَأصغر عند الله من خُرء بُعِيضَةٍ ، ولو عدّلت عند الله جناح نذاب لم يكن لكافر منها خَلَقٌ ، ولا لمسلم منها لحاقٌ" .

٧- خطبة مالك بن نمط : بين يدى رسول الله (ص) :

وقدم وفد همدان على رسول الله (ص) ، وفيهم مالك بن نمط أبو ثور فقام بين يديه ثم قال :

"يا رسول الله ، نَصِيَّةٌ^(٩) من هَمْدَانَ ، من كل حاضِرٍ وَبَادٍ ، أَتَوَكَّ على قُلُوبِ نَوَاجٍ^(١٠) ، متصلة بحبال الإسلام ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم ،

(١) جمع غمر مثلت الغين : وهو الحدث لا تجربة له ، والمرار : الرفعة والسودد .

(٢) أى الذهبية .

(٣) جمع شريعة ، وهى مورد الشاربة كالمشركة .

(٤) المبانى من القصور والحصون .

(٥) جمع دسيسة ، وهى الجفنة والدسكرة .

(٦) تنزى : توثب وتسرع .

(٧) العصيد : ما قطع من الشجر ، أى يضربونه لينسقط ورقة فيأخذوه غلفاً لإبلهم .

(٨) الترشيع : التربية وحسن القيام على المال ، والحضيد : ما خضد من الشجر ونحى منه ، وكل ما قطع من

عود رطب (فعل بمعنى مقبول ، أى يصحونه ويقومون بأمره .

(٩) النصية من القوم : الخيار ، وحمدان : من عرب اليمن .

(١٠) القلص : جمع قلوص ، وهى من الإبل الشابة أو الباقية على السير ، والنواجى : جمع ناجية ، وهى المسرعة فى السير .

مِنْ مِخْلَافٍ^(١) خَارِفٍ^(٢) ، وَيَامِ ، وَشَاكِرٍ ، أَهْلَ السَّوَادِ وَالْقَرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ الرُّسُولِ ، وَفَارَقُوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ^(٣) عَهْدَهُمْ لَا يُنْقِضُ ، مَا أَقَامَ لَعَلَّعٍ^(٤) ، وَمَا جَرَى الْيَعْفُورُ بِصَلْعٍ^(٥) .

٨- سفانة بنت حاتم : بين يدي رسول الله (ص) :

حَدَّثَ الْإِمَامَ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ قَالَ : لَمَّا أَتَيْنَا بِسَبَايَا طَيْئٍ ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ جَارِيَةً جَمِيلَةً - وَهِيَ سَفَانَةُ بِنْتُ حَاتِمٍ^(٦) - فَلَمَّا رَأَيْتَهَا أُعْجِبْتُ بِهَا ، فَقُلْتُ لِأُطْلِبَنَّهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) لِجَعْلِهَا مِنِّي ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ أُنْسِيْتُ جَمَالَهَا ، لَمَّا سَمِعْتُ مِنْ فَصَاحِهَا ، فَقَالَتْ :

"يَا مُحَمَّدُ : هَلَاكَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الْوَاوِدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُخَلِّيَ عَنِّي ، فَلَا تُسَمِّتْ بِي أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ، فَإِنِّي بِنْتُ سَيِّدِ قَوْمِي^(٧) . كَانَ أَبِي يَفْكَ الْعَانِي^(٨) ، وَيَحْمِي الذَّمَّارَ وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيُسْبِعُ الْجَائِعَ ، وَيُفْرِجُ عَنِ الْمَكْرُوبِ ، وَيَطْعَمُ الطَّعَامَ ، وَيُقَشِّي السَّلَامَ ، وَلَمْ يَرُدَّ طَلِبَ حَاجَةً قَطُّ ، أَنَا بِنْتُ حَاتِمِ طَيْئٍ" .

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) : "يَا جَارِيَةُ هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ ، وَلَوْ كَانَ أَبُوكَ إِسْلَامِيًّا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ ، خَلَوْا عَنْهَا ، فَإِنْ أَبَاها كَأَيِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَاللَّهُ يَحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" .

(١) المخلاف : المكورة .
 (٢) خارف : لقب مالك بن عبد الله أبي قبيلة من همدان ، ويام ، وشاكر ، قبيلتان من همدان باليمن .
 (٣) الأنصاب : جمع نصب بضم نين ، وهو حجر نصب وعبد من دون الله ، وقيل النصب جمع وأحدهما نصاب ، قيل هي الأصنام وقيل غيرها .
 (٤) اسم جبل .
 (٥) اليعفور : ولد البقرة الوحشية ، والصلع : الموضع لا ينبت شيئاً .
 (٦) السفانة في الأصل : اللؤلؤة .
 (٧) جواب الشرط محذوف وهذا تعليل له أي فافعل فإني ...
 (٨) العاني : الأسير .

يظهر من هذه الخطب الثمانية. أنها تشترك جميعاً في هدف واحد هو "الاقتراب" الشديد من شخص النبي (ص)، لمحاورته والتعرف على أفكاره الشريفة. ولكنها تتمايز فيما بينها على حسب الغرض الخاص الذي أتى من أجله كل خطيب ليخطب خطبته بين يدي الرسول (ص).

أما الخطبة الأولى لعطارد بن حاجب بن زرارة فإنها تعكس غرضه المحدد وهو "التحدّي بالمفاخرة" بأنه سيّد من أشرف بني تميم، يملك الأموال الطائلة مثل يفيه الأشراف، وبأنه وقومه متميزون في أعدادهم فهم كثر، وعدّتهم فهي طائلة.

وقد كلف النبي (ص) ثابت بن قيس بن الشماس، ليرد على عطارد مفاخرته المتحدية، فافتخر ثابت بالإسلام، وبرزوله المصطفى الذي تسابق مع غيره إلى الإيمان بما أنزله الله عليه، كما افتخر بأنه مع المسلمين يقاتلون الناس حتى يؤمنوا به. ومن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه. ومن كفر جاهدناه في الله أبداً. وقد ترتب على هذه الخطبة أنهم سلموا بأن هذا الخطيب الذي كلفه الرسول (ص) بالرد تفوق عليهم وأقنعهم، فأمنوا بالله ورسوله. وأكرمهم الرسول (ص) وعادوا مسلمين إلى قبيلتهم.

وأما الخطبة الثانية وهي ثنائية الشكل تتطوى على "تضاد الرأي" - فتشتمل على صوتين لكل من عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر، اللذين وقدا على النبي (ص). فقد سأل الرسول (ص) عمرو بن الأهتم أن يقدم رأيه في الزبرقان بن بدر. فوصفه بقوة الشخصية. ولكن الزبرقان أثار غضبه فاتهمه بحسده له، فأعطى رأياً آخر فيه مناقضاً لما قاله حيث وصفه بضعف المروءة. وقد تعجب الرسول (ص)، ثم أعجب بتفسير عمرو بن الأهتم لهذا

التحول (يا رسول الله : رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمتُ، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما عملت. وما كذبتُ في الأولى ولقد صدقتُ في الأخرى. ولذلك قال الرسول (ص) معقِباً (إن من البيان السجرا)).

وأما الخطبة الثالثة فهي خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي فتأسس على "شكوى" عامة من صعوبة الحياة في قبيلته. فالقبيلة بأسرها تعاني من شطف العين، لأن الأرض مقفرة مجدبة، لا زرع فيها ولا ماء يكفى، وجف كل شيء فيها حتى اللبن في ضروع الماشية. ومع ذلك فإنهم قد استمروا على إيمانهم بالله وبرسوله، وإقامة الصلاة رغم هذا القحط الذي يحيط بهم. ويبدو من هذه الشكوى أنها تعرض بأثر هذا القحط إما باستمناح الرسول(ص)، أو إسقاط الزكاة عليهم رعاية للحال التي يمرون بها.

وجاءت خطبة الرسول (ص) تستهدف الرد على خطبة طهفة، وتلخص الرد في أمرين هما : "الدعاء" له بزوال هذه الغمة : وسوف تزول بالدعاء المبارك. فهو دعاء يمازجه رجاء من الله جل شأنه و"التحذير" من إسقاط الزكاة فهي خاصة بمال المسلمين جميعاً، تستغل في الوقت المناسب، ولذلك من الممكن أن يحصل طهفة على شيء من مال سبق ودفعه إلى بيت المال. فهذا الرد المضىء كان بمثابة "طمأنة فورية"، بأن الأرض سوف تعود إليها خصوبتها، وسوف تزدهر الحياة فيها بسبب هذا الدعاء المبارك.

وأما الخطبة الرابعة لطبيان بن حداد (وهو من قبيلة مذحج) - فتعكس "التحول الختمى" وهو من قبيلة مذحج بدأ خطبته بحمد الله الذي هيا الأرض للزرع الأخضر المروى بنعمة المطر. وقد تحمل هو والوفد المرافق له مشاق الطرق الوعرة الخطرة لمقابلة الرسول (ص).. ثم تناول الأرض المرتفعة التي أتوا منها فحدد القاطنين السابقين فيها، وهم قوم نوح، وقوم عاد

وتمود، وقد تعرضت هذه الأرض إلى كوارث نتيجة غضب الله تعالى على هؤلاء القاطنين، ثم استوطنتها الأزرد فاصلحوا ما أهلكته الصواعق، حتى أتى بنو مذحج واستولوا عليها وملكوها بقوة السلاح فآزلوا الناس، وأهلكوهم. وبقيت بنو عامر أخيراً لتتوافق مع هذه البيئة فعمدت إلى الإصلاح، وأفادت مهما تنبته الأرض من شجر، قاموا برعايته لتأكل منه دوابهم. أي أن الخطبة تعتبر «دراسة تاريخية» لمنطقة من الجزيرة العربية يؤمن - الآن - سكانها بالإسلام رغم بعدهم عن المدينة وعن الرسول (ص)، كما أن هذه الخطبة قصدت رصد التحول الحضاري بها. وكان ردّ الرسول (ص) على هذه الخطبة موجزاً، ورغم إيجاز رده (ص) - فإنه أفاد أن نعم الدنيا كلها لا تساوي شيئاً أمام إرادة الله. يهب الخير للشاكرين، ويمنعه عن الكافرين. والخير في النهاية سوف يكون لمن تحمل وصبر. فردّه (ص) تأكيد على العظة أو العبرة المستفادة من خطبة ظبيان.

وأما الخطبة الخامسة فمحوها "العفو المستحق" عن سفانة (بنت حاتم) وهي من سبأيا قبيلة طيء، التي عاندت ولم تبادر إلى الإسلام فتعرضت للحرب والغزو والأسر. وهي (فتاة) جميلة بشهادة الإمام علي الذي روى لنا هذه الخطبة، وجمالها كان له من التأثير في علي لدرجة أنه صرح بأنه سوف يكلم الرسول (ص) لتكون ضمن فيئه، ولكن هذا التأثير الجمالي سرعان ما تراجع من نفس علي لغلبة فصاحتها وقوة حجتها وشجاعتها وهي تخطب أمام الرسول (ص)، فقد حددت في الخطبة مطلبها وهو "الإقراج عنها" حتى لا يشمت بها العرب، لاسيما أنها ابنة سيد طيء الذي له مواقف كريمة مع الأسرى، ومع من كان يقصده من حنين أو محتاج، وله قدرة على تحقيق السلام. (فأنا بنت حاتم الطائي).

وجاء ردّ الرسول (ص) موجزاً وهو : الإفراج عنها. لأنها تحدثت عن صفات أبيها وهي "صفات المؤمن" رغم إنه لم يدرك الإسلام، ولأن حاتم الطائي كان يحب مكارم الأخلاق. والإسلام يحب أيضاً مكارم الأخلاق. فإن الرسول (ص) أفرج عنها إكراماً لوالدها.

أسلوب الخطب الثماني : وتتطوي لغة هذه الخطب الثماني لهؤلاء الوفود الذين وفدوا على النبي (ص) على طائفة من الظواهر الأسلوبية :

الظاهرة الأولى: "التعريض" الذي حدده البلاغيون بأنه : «اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي أو المجازي» بمعنى أن يدل النص الأدبي (ومنه الخطابي) في مجمله على معنى أو معان يريد الناثر أو الشاعر أن يوصلها إلى المتلقى دون أن يصرح بما يريد، ومن غير أن ينص عليه. وذلك ما تم بالنسبة للخطبة الرابعة لطهفة بن أبي زهير النهدي، والخطبة السادسة لطبيان بن حداد.

فطهفة لم يصرح بأن قبيلته تحيا حياة غاية في المشقة والصعوبة والقسوة، حيث الأرض جافة، وبور، فلا ماء ينبع في جبالها الجرداء، ولا ماء، ومطر ينزل من السماء لينبت زرع أو نبات، أو عشب، وأنعامهم لا تجد ما يسدّ جوعها، ويروي عطشها، إلا في أماكن رعى بعيدة. والسكان بالضرورة غير مستقرين يهاجرون إلى أماكن بعيدة بحثاً عن الطعام. إن طهفة اكتفى بتقديم هذه الصور الوصفية المتوالية، ومنعه حياؤه من أن يطلب معونة أو يعرض "إسقاط الزكاة" حيث ترك تقدير الأمر للرسول (ص). ولذا جاء دعاؤه لهذه القبيلة بإحلال البركة في الأرض والأنعام. والمؤكد أن هذا الرد قد أثلج صدر طهفة حيث اعتبر دعاء النبي (ص) خير دليل على زوال هذه الشدة أو الغمة التي حلت على قبيلته.

وقد جاء جواب النبي (ص) أورده على طهفة مجارياً للأسلوب التعريضي الذي وظفه طهفة، حيث اكتفى النبي (ص) بالدعاء، نون تصريح بتقديم معونة ظاهرة، أو من غير النص المباشر على مساعدة طهفة وقبيلته، وحتى عندما حذر الرسول (ص) من التقصير في تأدية الزكاة المقررة على المال - جاء ذلك في إطار التذكير بالواجبات المفروضة على المسلم. كالزكاة والصلاة، والتمسك بالإيمان.

وكذلك لم يصرح ظبيان بن حداد برغبته الكامنة خلف خطبته وهي الإشارة "بتحمل قبيلته لمشاق الغزو والتحكم والتحول" التي تعرضت لها أراضى هذه القبيلة : بدلاً من التصريح بذلك اكتفى بتقديم صورة تفصيلية للأقوام التي حلت بها، كبنى مهلائيل، وكقوم نوح، وعاد، وثمود، والأزرد، وبنى هائيء. وكيف أن هذه الأقوام قد تركت أثارها التي دلت عليها وأشارت إليها. وكيف أن هذه الأرض التي شهدتهم مازالت باقية بينما حل بتلك الأقوام الفناء.. حتى من الله تعالى على القبيلة بنعمة الإسلام.. فهذه الصورة التفصيلية جاءت بمثابة التعريض برغبة "ظبيان" الكامنة في نفسه، وتحرّج من الإشادة بها، حتى لا يظن أحد - غير النبي (ص) - إنه أتى يخطب مفتخراً بقبيلته في قوة تحملها. لأن الكثير من القبائل قد تعرّض بدوره لذلك.

الظاهرة الثانية: هي "غرابة الألفاظ المستخدمة في أداء بعض الخطب على نحو ما نرى في الخطبة الرابعة لطهفة، والسادسة لظبيان، والسابعة لمالك بن نمط. فقد وردت في خطبهم ألفاظ غريبة على المتلقى في زمن كانت توجد فيه خطب ذات ألفاظ قريبة من إدراكه على نحو ما نرى في الخطب الخمسة الأخرى. ومن حق المرء أن يتساءل : إذا كانت الألفاظ في الخطب الخمسة سهلة قريبة، فلماذا صعب على المرء الإحاطة بألفاظ

الخطب الثلاثة مع أن اللغة العربية في تلك الفترة كانت قد هجرت تلك الألفاظ ؟ السبب في ذلك يعود إلى أن هؤلاء الخطباء قد وردوا من مناطق بدوية فتعمدوا هذه الألفاظ لتكون لهم الخصوصية أو لتكون لهم شخصيتهم الأدائية التي تشير إلى تميزهم عن الخطباء الآخرين. وسبب آخر يرجع إلى المتلقي اليوم. فالألفاظ التي يجدها عسيرة على الفهم لم تكن كذلك بالنسبة للمتلقى لها في تلك الفترة الزمنية، حيث لم يشك أحد من صعوبتها، ولم يعترض عليها، ولم يحدث أن استوقف أحد الخطيب ليسأله عن معنى هذه اللفظة أو تلك.

وأما الظاهرة الثالثة: فهي بروز "السجع البديعي" في أداء بعض الخطب على نحو غالب، وفي بعضها الآخر على نحو قليل أو نادر.

أما غلبته فتظهر في الخطبة الرابعة على لسان طهفة. مثل قوله: "يا رسول الله : أتيناك من غوري تهامة بأكوار الميس، نرمى بنا العيس، نستحلب الصبّير، ونستحلب الخبير، ونستعصد البرير، وقوله "ونستخيل الرهام، ونستخيل الجهام" وقوله : "وسقط الأملوج، ومات العسلوج". كما تظهر الغلبة في الخطبة السادسة على لسان ظبيان بن حداد مثل قوله : "غرسوا وديانه، وذلّلوا خشانه، ورعوا قربانه"، وقوله "فرماهم الله بالدمالق، وأهلكهم بالصواعق"، وقوله : "وهم الذين خطوا مشاربها، وأتوا جداولها، وأحبوا غراسها، ورفعوا عريشها"، وقوله : "وإن حمير ملكوا معاقل الأرض وقرارها، وكهول الناس وأعمارها، ورعوس الملوك وعرارها" وقوله : "فكان لهم البيضاء والسوداء، وفارس الحمراء، والنجزية الصفراء".

فالسجع كما نلاحظ متكرر في الخطبتين على نحو من التفاوت فبعضه "ثنائي الحرف الأخير" كما في خطبة طهفة حيث تكررت للسين

مرتين (الميس - العيس) والميم مرتين (الرهام - الجهام) والهمزة مرتين (البطاء - الوطاء) والنون مرتين (المذهن - والجعثن) و(العثن - الزمن) واللام (الرّسل - الرّسل)... وتكررت الجيم مرتين (الأملوج - العسلوج).. وكما في خطبة ظبيان : حيث تكررت القاف مرتين (الدمالق - الصواعق). وكما في خطبته (ص) يردّ على طهفة. حيث تكرر حرف الراء مرتين (الدثر - الثمر) والدال مرتين (الثمد - الولد)، وتكررت الكاف مرتين (الشرك - الملك).

والبعض الآخر ثلاثي الحرف الأخير، كما نرى في خطبة طهفة، حيث تكررت الراء ثلاث مرات (الصيّير - الخبير - البرير)، وفي خطبة ظبيان (قرارها - غمارها - عرارها. وتكررت الهمزة ثلاث مرات (السوداء - الحمراء - الصفراء)، والعين (الشرائع - المصانع - الدسائع)، وكما نرى في خطبته (ص) حيث تكررت ثلاث مرات : (الزكاة - الحياة - الصلاة). وكما في خطبة ظبيان تكررت الهاء ثلاث مرات (وديانه - خشانته - قربانته).

والواقع أن كلاً من السجع الثنائي الحرف الأخير، والثلاثي الحرف الأخير - ليس متعسفاً، أو مفتعلاً، لأنه من بنية الأسلوب، ولا يمكن استبعاده، ذلك أنه بنية أسلوبية داخل المعنى العام للخطبة، استدعاها - المعنى - وتطلبها، فلفظ السجع تابع للمعنى. وتحققت الفائدة منه في أنه يمدّ أسلوب الخطبة بطاقة تأثيرية تؤثر في المتلقي فيتابعه بسبب طاقته التثغيمية، والإيقاعية. ووجود السجع في هذه الخطب يمثل نسبة ضئيلة بالنسبة لمادة هذه الخطبة أو تلك، ومن ثم يقبله المتلقي ولا يملّ منه، ولا ينصرف عنه.

وأما البنية السجعية النادرة أو القليلة فنراها في خطبة مالك بن نمط: حيث لم ترد إلا مرة واحدة في آخر خطبته (لعلع - صلّع) وخطبة ثابت بن قيس الشماس يرد فيها على عطار، حيث وردت في أول خطبته مرة واحدة وذلك في قوله (أمره - كرسية - علمه - فضله). كما ندر وقلّ في خطبة سفانة بنت حاتم الطائي، أمام النبي (ص) فلم توجد بنية السجع إلا في بداية الخطبة (هلك الوالد، وغاب الوافد). فقد وظف الخطباء هذه البنية النادرة (الأحادية) لمجرد إحداث تأثير إضافي، يدعم لغة الخطب المشتملة عليها، إذ إن الخطب ذات أسلوب سهل ميسر، وما هذه البنية السجعية إلا لإضفاء "نغمة" أو إيقاع منفرد على هذا الأسلوب.

الظاهرة الرابعة: الجمع بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي
والمراد بذلك أن يعتمد الخطيب إلى إخبار مستمعيه، بموضوع الخطبة، أو يسردها بأسلوب خبري انسيابي مطرد، كما نرى في جميع الخطب التي معنا، التي حرص فيها الخطباء على توصيل معانيهم إلى المستمعين بهذا السرد الخبري - ولكن الخطيب قد يلجأ إلى إدخال بنية أسلوبية مغايرة، وعلى نحو توزيعي على هذا السرد رغبة منه في تحقيق مزيد من متابعة المستمع إليه. وتتجلى هذه البنية الأسلوبية في صيغة الطلب النوعية. مثل (الاستفهام)، أو الأمر، أو النداء وغيرها على نحو ما نرى في خطبة عطار، الذي أوقف التعبير بالأسلوب الخبري، لإحلال هذه البنية التي تتمثل في صيغة الاستفهام وهي (فمن مثلنا في الناس؟) لنا رعوس الناس وأولى فضلهم؟ ثم يعود إلى الأسلوب الخبري بغد فراغه من التعبير بتلك الصيغة التي جاءت على نحو تكراري، وذلك لرغبته في أن يحظى بمزيد من اهتمام الرسول (ص) بما يعرضه أمامه (ص).